مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 17 العدد: 02 السنة 2025 ص 263 - 279

تاريخ الإرسال: 2024/03/07 تاريخ القبول: 2025/10/15
تاريخ النشر: 2025/11/30

دور الأوقاف في خدمة النّشاط العلمي ومؤسساته بالمغرب الأوسط على عهد الدولة الزيانية

The role of "El Awqaf" in the scientific activity and its institutions in the Central Maghreb during the era of the Zayani state.

ياسين شبايبي[1]
جامعة الجلفة (الجزائر)، [1]y.chabaibi@univ-djelfa.dz

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى إبراز دور الوقف كأحد المُؤثّرات الأساسية والهامّة في تعزيز النّشاط الفكري والتّعليمي في الدّولة الزّيانية، وذلك من خلال رعايته لمؤسسات العلم والمنتسبين إليها من أساتذة وطلبة، كما أننا سنحاول من خلال هذه الدّراسة أن نعرض أهمّ النّماذج المُمَثِّلَة للمؤسسات العلمية والتعليمية في هذه الدّولة والتّي لم تكن لِتُشيّد وتضطلع بدورها ونشاطها التعليمي والدّيني لولا أوقاف السّلاطين والمُحسنين.

خَلُص هذا المقال إلى أنّ الوقف كان أحد أهمّ مظاهر الحضارة الإسلامية في عهد الدّولة الزيانية من خلال أدواره الكثيرة في المُجتمع حيث تعدّدت أشكاله وأوجهه وأدواره، وقد أعطى صورة مثالية في تحقيق التّضامن والتّكافل في مجتمع الدّولة الزيانية، ليس إجتماعيا واقتصاديا فحسب، بل تعداه إلى الجانب الثقافي والعلمي، حيث ساهم في تشييد وتمويل الكثير من مؤسسات العلم من جوامع ومساجد ومدارس ومكتبات، ورعاية طلبة العلم في مختلف مراحل وأطوار دراستهم، ودعم المشايخ

والعلماء الذّين استقرّوا بحواضر الدّولة، وتعدّدت حلقاتهم العلمية، واختلفت مجالات اهتمامهم، والقائمين على النّشاط التعليمي عامّة.

الكلمات المفتاحية: الأوقاف، الدولة الزيانية، المساجد والجوامع، المكتبات، المدارس.

Abstract:
This article aims to highlight the role of "Elwaqf" as one of the main and important influences in promoting intellectual and educational activity in the Zayani state through its huge interest of scientific institutions and their affiliates, including professors and students. This study, also aims to investigate the most important models representing scientific and educational institutions in this state, that would not have been built and assumed its educational, religious role and activity without "Elwaqf" of the sultans and benefactors.
This article concluded that "Elwaqf" was one of the most important manifestations of Islamic civilization in the era of the Zayani state through its many roles in society, where its forms, aspects and roles varied. It has also given an ideal image in achieving solidarity in the society of the Zayani state, not only socially and economically, but also in the cultural and scientific aspect, Where it contributed to the construction and financing of many scientific institutions such as mosques, schools and libraries, and the care of students of science in various stages of their studies, it supported the sheikhs and scholars who settled in the cities of the state, where their scientific seminars varied, and their areas of interest differed, and those in charge of educational activity in general.

Keywords: El Awqaf, The Zayan state,Mosques, Libraries, Schools

المؤلف المرسل: ياسين شبايبي، الإيميل:y.chabaibi@univ-djelfa.dz

1.مقدمة:

عرفت الدّولة الزّيانية نشاطا فكريا وثقافيا متميّزا طيلة أطوارها التّاريخية، يشهد على ذلك ما احتفظت به كتب التّراجم ومصادر التاريخ العامّ وحتّى كُتب الرّحلة من أخبار علمائها ومشايخها وإسهاماتهم العلمية والفكرية التّي غطّت مختلف ألوان العُلوم والمعارف والفنون. حيث تظافرت الكثير من العوامل والظّروف والمؤثّرات في خلق هذه الحركية الثّقافية والعلمية؛ فقد حظيت بسلاطين وأمراء عُرفوا بتقديرهم للعلم ورعايتهم واحتفائهم بالعُلماء وطلبة العلم كالسّلطان يغمراسن بن زيّان(633- 681هـ/ 1236- 1283م)، وأبي حمّو موسى الأوّل (707-718هـ/1308- 1318م)، وأبي حمّو موسى الثّاني (760- 791هـ/1359- 1389م)[1]..، إضافة إلى بروز عائلات علمية كثيرة مشهورة عُرفت بريادتها في التّأليف والتّدريس وتوارث العلم كعائلة المقري، والعُقباني، وابن مرزوق، والشّريف، وابن زاغو..[2].

وزيادة على العوامل السّابقة؛ فقد أعطت هجرات العلماء الأندلسيين إلى حواضر الدّولة الزيّانية واستقرارهم بها نفسا جديدا للنّشاط العلمي من خلال نقلهم لمناهجهم وطرقهم الخاصّة في التّعليم، من خلال تطبيقها في حلقات دروسهم، وتلقينها لغيرهم من العُلماء؛ ناهيك عن الدّور الكبير الذّي اطّلعت به الأوقاف الكثيرة في استمرارية الحركة العلمية والتّعليمية بالدّولة الزّيانية؛ فيا ترى ما هو الدّور الذّي اضطلعت به الأوقاف في خدمة النّشاط العلمي ومؤسّساته بالمغرب الأوسط على عهد الدّولة الزّيانية (637-962هـ/1239- 1555م)؟

وللإجابة على هذه الإشكالية البحثية الرئيسية ارتأينا تحديد المحاور التّالية لمناقشتها، وهي تُلخّص أهداف البحث ومنهجيته:

-

اهية الوقف، وحُكمه، ودليل مشروعيته.

-

لوقف على الجوامع والمساجد والكتاتيب في العهد الزّاني.

-

لوقف على المدارس التّعليمية.

-

لوقف على الكُتب والمكتبات.

2. ماهية الوقف، وحُكمه، ودليل مشروعيته:

"الوقف" في مدلوله اللّغوي يعني: "الحبس"[3]، ومن مرادفات الوقف والحبس: "المنع"، ويُقال: تحبيس الشّيئ أن يُبقّى أصله، ويُجعل ثمره في سبيل الله[4]. وقد تعدّدت وتباينت تعريفات الفقهاء للوقف تبعا لاختلاف مذاهبهم في الوقف[5]. ولعلّ أشمل تعريف للوقف ما أخذ به الحنابلة بقولهم أنّه: "تحبيس الأصل وتسبيل الثّمرة"، لأنّه مأخوذ من حديث النّبيّ صلى الله عليه وسلّم، وقوله لعمر رضي الله عَنه: «إن شِئت حبست أصله وسبّلت ثمره»[6].

واصطلاحا: الوقف مُصطلح إسلامي يُعبّر به عن نوع خاصّ من التّصدّق، والتّبرّع على سبيل الخير والإحسان، فيُطلق على الصّدقات والتّبرّعات التّي يكون لها بقاء واستمرار بحيث ينتفع بها النّاس على مدى سنين أو أجيال وقرون، وهذا يعني أنّ الوقف إنّما يكون بأشياء يُستفاد من نفعها وغِلّتها وفائدتها مع بقاء الشّيئ نفسه واستمرار عينه مدّة من الزّمن كالأرض والبناء والشّجرة[7].

والوقف هو نوع من أنواع البِرّ والصّدقات وأعمال الخير المندوبة في الإسلام، يستمدّ مشروعيّته من القرآن الكريم، ومن السّنّة الشّريفة، وعمل الصّحابة رضوان الله عليهم.

فمن الآيات الكريمة التّي تُرغّب على الإنفاق في سبيل الله، قوله تعالى: {لَنْ تَنَالُوا البِرّ حتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّون ومَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْئٍ فَإِنَّ الله بِهِ عَلِيم[8]} ، وقوله أيضا: {...وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتّقوى...}[9]، وقوله عزّ وجلّ: {يَا أَيُّهَا الذِّينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ...[10]}.

وممّا جاء في الأحاديث النّبوية قوله عليه الصّلاة والسّلام: «من احتبس فرسا في سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوعده، فإنّ شِبعَه وريّهُ وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»[11]، وقوله أيضا: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاثة: صدقة جارية أو علم يُنتفع به أو ولد صالح يدعو له»[12]. وممّا جاء في السّنّة النّبوية العملية وقف النّبي صلى الله عليه وسلّم لسبعة حوائط (بساتين) بالمدينة كانت لرجل يهودي اسمه "مخيريق"، وكان مُحِبّا للنّبي صلى الله عليه وسلّم، وقد قاتل مع المُسلمين يوم أحد، وكان قد أوصى إن هو قُتِل أن تعود أمواله للرّسول عليه الصّلاة والسّلام، وقد قُتِل وهو على يهوديّته. ويُعتبر هذا الوقف أوّل وقف من المُستغلاّت الخيرية في الإسلام، في حين كان مسجد قباء والمسجد النّبوي من أوائل الأوقاف الدّينية في الإسلام[13].

وأوّل أوقاف الصّحابة في الإسلام كان وقف عمر رضي الله عَنه، وممّا جاء في ذلك: «أنّ عمر أصاب أرضا بخيبر، فأتى النّبي صلّى الله عليه وسلّم يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله إنّي أصبت أرضا بخيبر، لم أُصِب مالا قطّ هو أنفس عندي منه، فما تأمرني به؟، قال: إن شِئت حبست أصلها وتصدّقت بها، قال: فتصدّق بها عمر أنّه لا يُباع أصلها، ولا يُبتاع ولا يورث، ولا يوهب، قال: فتصدّق عمر في الفقراء، وفي القربى وفي الرّقاب، وفي سبيل الله، وابن السّبيل، والضّيف لا جناح على من وَلِيَهَا أن يأكل منها بالمعروف، أو يُطعم صديقا غير مُتموّل فيها»[14].

كان الوقف معروفا في الحضارات التّي سبقت الإسلام، غير أنّه كان محصورا في المجال الدّيني فقط، حيث كانت تُرصد العقارات لتكون معابد تُقام فيها

العبادات[15]. أمّا في الحضارة الإسلامية فقد تنوّعت وتوسّعت أغراضه وتوسّع نِطاقها لتشمل منذ عهد النّبوّة مُختلف مقاصد الخير في المجتمع، سواء في الجانب الدّيني أو العلمي والثّقافي أو الإجتماعي والإنساني أو الصّحّي أو الإقتصادي وحتّى الحربي[16].

.3

لوقف على الجوامع والمساجد والكتاتيب في العهد الزّياني:

لم يقتصر دور المسجد في الحضارة الإسلامية على الجانب الدّيني التّعبّدي فقط، بل كانت له أدوار مُختلفة وكبيرة خاصّة في الجانب الدّعوي والتّعليمي، فقد كان مؤسّسة تقوم بنفس أدوار المدارس والزّوايا، تُلقى فيه الدّروس وتُعقد فيه حلقات العلم، وتُنظّم فيه المُناظرات العلمية والحوارات الثّقافية، ودروس الوعظ والإفتاء[17]. لذلك يُمكن اعتباره أوّل مؤسسة ثقافية شُيّدت في الإسلام؛ فكان مسجد قباء أوّل وقف ديني بناه النّبي عليه الصّلاة والسّلام في بني عمرو بن عوف حينما قدم مُهاجرا إلى المدينة قبل أن يدخلها[18]، ثمّ المسجد النّبوي في المدينة المنوّرة في السّنة الأولى للهجرة، فكان أوّل ما قام به النّبي صلى الله عليه وسلّم عند دخوله المدينة هو تحديد مكان بناء مسجده مكان مبرك ناقته[19]، دلالة على دوره العظيم في حياة الأمّة المُسلمة.

لقد اقتدى الصّحابة الكرام والتّابعون من بعدهم بهدي النّبي صلى الله عليه وسلّم في بناء المساجد سواء في الأراضي التّي يفتحونها، أو المُدن التّي اختطّها المُسلمون؛ ومن ذلك مسجد القيروان الذّي تمّ بناؤه سنة إحدى وخمسين للهجرة ليكون أوّل مسجد بُني في بلاد المغرب الإسلامي[20].

وفي حديثنا عن المساجد في الفترة الزّيانية فتشير بعض الإحصائيات أنّ عددها قد بلغ حوالي ستّين مسجدا في تلمسان وضواحيها، بين مسجد كبير ومتوسّط

وصغير[21]. وقد كان تشييد هذه المساجد عملا وقفيا خالصاً، وفي أغلب الأحيان ما كان عملا فرديّا لأحد المُحسنين الذّي يقود عمليّة بناء المسجد والوقف عليه وصيانته، إضافة إلى مُساهمة أعيان الحيّ أو المدينة بالتّبرّعات عليه[22]. وقد ساهم سلاطين الدّولة الزّيانية في تشييد العديد من المساجد بمالهم الخاصّ، وأوقفوا عليها الكثير من الأراضي ومنابع المياه، وغيرها من الأملاك[23].

كان أوّل عمل وقفي لسلاطين بني زيّان متمثّلا في بناء السّلطان يغمراسن بن زيّان (633-681هـ/1235- 1282م) لصومعتي الجامعين الأعظمين: الجامع الإدريسي بأجادير، والجامع المرابطيبتاجرارت، وقد استُؤذن في أن يُكتب اسمه عليهما فأبى وقال: "علم ذلك عند ربي"[24]، ليتبعه ابنه السّلطان أبو سعيد عثمان الأول(681-703هـ/1282- 1303م) في سنة 696هـ/1296م في بناء مسجد أبي الحسن الذّي حمل اسم أحد مشاهير علماء تلمسان وهو أبو الحسن بن يخلف التنسي، وكان هذا الوقف الأوّل من نوعه في الدولة الزيانية، حيث بناه السلطان أبو سعيد عثمان الأول ليكون ثوابه على أخيه المتوفّى الأمير أبي عامر إبراهيم ابن السلطان يغمراسن، وقد حُبِس عليه أحباسا كثيرة منها: عشرون حانوتا، وداران للإمام والمؤذّن القيّم تحبيسا تامّا مؤبّدا[25].

ومن أهمّ المساجد التّي بناها سلاطين الدّولة الزيانية وأوقفوا عليها نذكر: مسجد أولاد الإمام، أنشأه السّلطان أبو حمو موسى الأوّل (707-718هـ/1308-1318م) سنة 710هـ/1310م ليكون ملحقا بالمدرسة القديمة التّي بناها، وكذا مسجد إبراهيم المصمودي، وهو من تأسيس السّلطان أبي حمو موسى الثاني(760-791هـ/1358- 1388م)، شيّده إلى جانب المدرسة التّي أنشأها تكريما لوالده أبي يعقوب.

ومن المساجد التّي شيّدها السّلاطين المرينيون حينما سيطروا على تلمسان مسجد أبي مدين بالعباد، وهو من بناء السّلطان أبي الحسن المريني سنة 739هـ/1339م[26]، وممّا جاء في وصف ابن مرزوق لهذا المسجد قوله: "أمّا الجامع الذّي بناه حذاء ضريح شيخ المشايخ وقدوة الأئمّة المتأخّرين من المتصوّفين أبي مدين شعيب...فهو الذّي عزّ مثاله، واتّصفت بالحسن والوثاقة أشكاله، أنفق فيه مقدارا جسيما ومالا عظيما"[27]. كما شيّد هذا السّلطان مسجد مستغانم العتيق سنة 742هـ/1341م، وقد حبس عليه العديد من الأوقاف ليقوم بدوره الدّيني والتعليمي، لتتعدّد أحباسه من حانوتين وجِرار من الزّيت للإضاءة، كما تُصرف من ريع الأحباس لدفع مرتّبات الإمام والمؤذّن[28]. كما شيّد ابنه السّلطان أبي عنان سنة 754هـ/1353م جامع سيدي الحلوي بعد استيلائه على تلمسان والمغرب الأوسط[29].

- الوقف على الكتاتيب:

يعتبر الكُتّاب مرفقا علميا دينيا وُجد بإزاء المساجد، وهو عبارة عن حجرة أو حجرتين مجاورة للمسجد أو بعيدة عنه، وقد يكون غرفة في إحدى المنازل، وهو بناء بسيط ليس بالفخم، وقد بُني خصّيصا لتعليم القرآن الكريم للصّبية، يبنيه صاحبه احتسابا لله وطلبا للثّواب. وإضافة لدور الكتّاب التّعليمي فقد بُنيت الكثير منها في الدّولة الزّيانية من أجل الحفاظ على طهارة المسجد، وهدوئه دون تشويش على المُصلّين أو المتعلّمين؛ وغالبا ما كان من أموال الأوقاف، وكان بكلّ حيّ بمدينة تلمسان كُتّاب أو عدّة كتاتيب مستقلّة أو تابعة للمساجد[30].

وكان مذهب أهل تلمسان والمغرب عامّة الإقتصار في هذه الكتاتيب على تعليم القرآن فقط دون العلوم الشّرعية، على حدّ قول ابن خلدون[31]. وقد تغيّرت هذه الطّريقة بوصول علماء الأندلس إلى حواضر المغرب الأوسط، واستقرارهم بها، وكذا بعودة بعض المشايخ من بلاد المشرق، حيث نقلوا منهج المشارقة في تعليم الصّبية،

فإضافة إلى تحفيظ القرآن الكريم، أضافوا موادا جديدة كرواية الشّعر والتّرسّل، ومبادئ اللغة العربية، والحديث، والخطّ والكتابة[32].

.4

لوقف على المدارس التّعليمية:

ظهرت المدارس التّعليمية بتلمسان الزّيانية مع مطلع القرن 08هـ/14م،و كانت وظيفتها الأساسية استقبال الطّلبة لمزاولة تعليمهم، وقد عمل السّلاطين الزّيانيون على تشييدها على نمط المدارس النّظامية بالمشرق، وقد كانت تُبنى المدرسة عادة خارج المسجد، يُلحق بها جناح خاصّ لإيواء الطّلبة الغرباء، والفقراء وعابري السّبيل منهم، إضافة إلى المكتبة و هي خزانة تتضمّن كُتبا محبسة لفائدة الأساتذة والطّلبة، وقد كانت تعتمد في تمويلها على الأحباس بالدّرجة الأولى، والإعانات التّي يُقدّمها المُحسنون والتّجّار والعلماء، والسّلاطين والأمراء، وقد عرفت تلمسان الزّيّانية خمس مدارس كُبرى وُقفت عليها الكثير من الأوقاف[33].

كانت المدارس التلمسانية مدارس حكومية رسمية تابعة كلّها للدولةالزيانية، والتّي ظلّت تُشرف عليها بالتّمويل، وتعيين الأساتذة والمدرّسين بها، وكان كلّ مدرّسيها من المالكية. وقد خصّصت السّلطة الرّواتب والأجور للمدرّسين ولكلّ العاملين في المدارس، كما تكفّلت بإعانة الطّلبة مادّيا وبتحمّل جميع نفقاتهم ومصاريفهم[34]، وتمثّلت هذه المدارس في:

– مدرسة ابني الإمام: وهي أوّل مدرسة تأسّست في عهد الدّولة الزّيانية، أمر ببنائها السّلطان أبي حمو موسى الأوّل، أسّسها لصالح الأخوين العالمين أبي يزيد عبد الرحمن (ت: 741هـ/1340م)، وأبي موسى عيسى (ت: 749هـ/1348م) حيث تمّ تكليفهما بإدارة التّعليم والتّدريس بها، وقد أُلحقت بها دارين سكنيّتين لأولاد الإمام ومساكن للطّلبة، وقد حُطّمت أثناء الإحتلال الفرنسي سنة 1859م[35]. ولم يبق منها

إلاّ المسجد الصّغير بمنارته، والذّي أُسّس بجانبها، و(يُعرف باسم جامع سيدي أولاد ليمام)، ويقع في الناحية الغربية من تلمسان اليوم[36].

– المدرسة التّاشفينية: أسّسها السّلطان أبو تاشفين الأوّل بن أبي حمو موسى الأول بجانب المسجد الجامع الأعظم تكريما للفقيه أبي موسى عمران المشدّالي، وقد كانت آية في الجمال تدلّ على ولع هذا السّلطان بالعمران والتّفنّن فيه، وقد ظلّت قائمة طيلة خمسة قرون من الزّمن تُزاول وظيفتها التعليمية إلى غاية 1876م حيث هدمها المستدمر الفرنسي[37].

– مدرسة أبي مدين بالعبّاد: شيّدها السّلطان أبو الحسن المريني عندما استولى على مدينة تلمسان والمغرب الأوسط بقرية العبّاد سنة 747هـ/1447م، وقد اشتهرت هذه المدرسة بفنّها المعماري الفريد، وقد جاء في نصّ وقفية هذه المدرسة –والتّي هي كتابة منقوشة على لوح رخامي أبيض مكتوبة بالخط الأندلسي المغربي، تحتوي على ستة وثلاثين سطرا– أسماء الممتلكات الوقفية الخاصّة بهذه المدرسة، ممّا يضمن استقلاليّتها المالية وديمومتها، وكانت أغلب هذه الممتلكات أراضي زراعية خصبة وبساتين وحمّامات، ومحلاّت تجارية...، وقد كانت بمثابة جامعة في وقتنا الحالي تُمكّن الطّلبة الذّين أكملوا تعليمهم في الكُتّاب والمسجد من مواصلة دراستهم بها[38].

– مدرسة سيدي الحلوي: أسّسها السّلطان المريني أبي عنان سنة 754هـ/1454م بالقرب من ضريح الولي الصالح أبي عبد الله الشوذي الإشبيلي الملقّب بالحلوي (ت: أوائل ق07هـ/13م)[39].

– المدرسة اليعقوبية: أسّسها السّلطان أبي حمو موسى الثاني سنة 765هـ/1364م، وقد شيّد إلى جانبها مسجدا –سبقت الإشارة إليه– وأحدث بجانبها مقبرة ضمّت ضريح أبيه أبي يعقوب يوسف وأعمامه أبي ثابت وأبي سعيد، وقد أكثر عليها الأوقاف، ورتّب فيها الجرايات وقدّم للتّدريس بها الشّيخ أبي عبد الله الشريف

التلمساني(ت: 771هـ/1370م)، وقد أشهد السّلطان ما أوقفه عليها، وكسا طلبتها كلّهم، وأطعم النّاس عليها[40]. ومن جملة الأوقاف التي حبسها على هذه المدرسة ما جاء في نصّ تحبيسها، وهي: ثلاثين حانوتا، وطاحونة، وحمام، وفرن، وفندق، ورحا كثيرة، وأراضي مغروسة بأشجار الزّيتون، ومعصرة، ومن هذه الأملاك ما كان موجودا داخل مدينة تلمسان، والبعض الآخر خارجها[41].

5. الوقف على الكتب والمكتبات:

كان إنشاء المكتبات، وتوفير الكتب اللاّزمة إحدى ركائز الحركة الفكرية والتعليمية بالدّولة الزّيانية، وقد كانت تلمسان عاصمة علمية مزدهرة بلغت فيها صناعة الكتب تأليفا ونسخا وجمعا درجة عالية، وقد جرت العادة أن تكون الكُتب بالمساجد والمدارس، وأعظمها ما يكون بقصور السّلاطين والأمراء[42].

وُجد بالدّولة الزّيانية نوعان من المكتبات الوقفية: المكتبات العامّة والخاصّة، فالعامّة منها ما تمّ تشييده وفق بناءات خاصّة، وأحيانا تُلحق مباشرة بالمساجد والمدارس الكبرى، أمّا المكتبات الخاصّة فتحتوي على حجرات متعدّدة تربط بينها أروقة واسعة، بها كتب موضوعة على رفوف مثبتة بالجدران، مع تخصيص كلّ غرفة لفرع من فروع العلم، وتوجد به أروقة للطّلبة المطالعين، وقد اتّخذت هذه المكتبات تسميات عدّة كخزانة الكتب، ودار الكتب..، والأكيد أن السّلاطين الزّيانيين قد أسهموا في تشييد المكتبات بنوعيها سواء الخاصّة الموجودة في قصورهم، أو العامّة المتواجدة في مختلف المؤسّسات التعليمية، وقاموا بجلب مختلف المصنّفات من بقاع العالم الإسلامي، كما شجّعوا على التّأليف والنّسخ[43].

ومن أشهر المكتبات العامّة مكتبة الجامع الكبير بتلمسان، وهي من إنشاء السّلطان أبي حمّو موسى الثّاني، والتّي كانت توجد على يمين المحراب، ولا يُستبعد أن يكون قد أنشأ مثلها في المدرسة اليعقوبية التّي بناها. كما ذُكر عن السّلطان أبي

زيان محمد بن حمو (796-801هـ/1394-1399م) أنّه أنشأ مكتبة عظيمة بمقدم الجامع الأعظم، وكانت أهمّ مآثره، وأوقف عليها الكثير من الأوقاف[44]؛ وقد دأب هذا السّلطان على اختطاط المصاحف وتحبيسها، ومن الكتب التّي نسخها بيده ثمّ حبسها صحيح البخاري، وكتاب الشّفا للقاضي عياض[45].

لم يقتصر تحبيس الكتب على السّلاطين وحدهم، بل حتّى العامّة من النّاس قصد الحصول على الأجر والثّواب، وممّا جاء في نوازل المازوني أنّ رجلا أوصى بتحبيس كُتُبٍ كان يملكها بعد موته، وعلى الرّغم من أنّه كان مُستدانا إلاّ أنّ الفقهاء أفتوا بأن يمضي الحبس. وفي نازلة أخرى تقول أنّ رجلا كانت لديه كُتبا حبسها في مرضه على من يكون فقيها من أولاده، فانتفع بها أحد بنيه كان منشغلا بالعلم، ثمّ توفي فرجعت لولد آخر من أولاده كان طالبا للعلم. كما كان من سنّة الشّيوخ وأهل العلم كذلك التّصدّق بالكتب، فيذكر ابن مرزوق في مناقبه أنّ والده أبا العبّاس أحمد بن مرزوق (ت: 741هـ) عندما عزم على الرّحلة إلى مكّة المكرّمة أعتق مملوكة له، وحبس كُتبا، وأوصى له بكتب[46].

ولم يكن أهل المغرب الأوسط يحبسون الكتب داخليّا فقط، بل كانت لهم مشاركة خارج الدّيار أيضا، ومن ذلك مجموعة كبيرة من الكتب حُبست بالأزهر الشّريف في رواق المغاربة ترجع لأهل المغرب الأوسط، كما كان لعلماء الدّولة الزّيانية حضّ كبير في تحبيس الكُتب لاسيما على الحرمين الشّريفين، وعلى المسجد الأقصى[47]، وكانت هذه سنّة علماء الدولة الزيانية التّي دأبوا عليها في رحلاتهم المقترنة بالحجّ أو السّفر للقاء المشايخ في أقطار المشرق الإسلامي، فكانوا يحملون معهم نسخا من تآليفهم، يحبسونها في هذه المساجد والمكتبات.

وقد جرت عادة أهل المغرب عامة بما في ذلك أهل تلمسان في تحبيس الكُتب أن تُكتب صيغة التّحبيس في الورقة الأولى التّي تنصّ على العنوان، وصاحب

الحبس، ومكان التّحبيس، وشروط استغلال الكتاب، كما تُكتب في معظم ورقات الكتاب أو جميعها كلمة "حبس"[48].

6. خاتمة:

لقد كان الوقف ولا يزال مظهرا فريدا من مظاهر الحضارة الإسلامية في مُختلف جوانب الحياة، وصورة راقية لأوجه التّكافل في المجتمع الإسلامي، وبدون شكّكانت الأوقاف أحد أهمّ أسباب نهضة الدّولة الزيّانية عمرانيا وثقافيا وعلميّا، وبروز تلمسان كحاضرة للعلم والعلماء تستقطب الأساتذة وطلبة العلم من مختلف الوجهات، وما هذه الشّهادة التّي ساقها أبو الحسن القلصادي الأندلسي(ت: 891هـ) في رحلته إلاّ واحدة من تلك الشّهادات الكثيرة التّي صدحت بها ألسن وروايات العلماء مشرقا ومغربا إذ يقول: "وأدركت فيها كثيرا من العُلماء والصّلحاء والعُبّاد والزّهّاد، وسوق العلم حينئذ نافقة، وتجارة المُتعلّمين والمعلّمين رابحة، والهمم إلى تحصيله مشرفة، وإلى الجدّ والإجتهاد فيها مرتقية"[49].

لعلّ من أسمى الأدوار التّي اضطلعتبها الأوقاف في العهد الزّياني عنايتها وخدمتها للميدان العلمي والتعليمي وكلّ ما يتعلّق به، كتشييد المساجد والكتاتيب والمدارس والمكتبات، وتمويلها، وترميمها، وكذا توفير الرّعاية المالية للعلماء والأساتذة وطلبة العلم. وقد كان لسلاطين الدّولة الزّيانية دور مهمّ في ازدهار الأوقاف، من خلال مُساهماتهم الكبيرة في تحبيس الأراضي والضّياع والمرافق المختلفة من محلات تجارية وقنوات مياه ومُختلف الأملاك الأخرى، في خدمة هذه المؤسسات العلمية، ومن خلال تقرّبهم للعلماء كذلك، والرّفع من شأنهم، والسّعي في وفادتهم واستقرارهم بتلمسان، وخدمتهم لطلبة العلم من خلال تغطية نفقاتهم ودفع أجور المعلّمين والأساتذة والعاملين على خدمة الأوقاف.

الهوامش:

[1]– هادي جلول، "الحركة العلمية في حاضرة تلمسان وعناية السّلطة الزّيانية بها (ق8–9هـ/14–15م)"، الأكاديمية للدراسات الإجتماعية والإنسانية، ع: 19– جانفي 2018م، ص: 81.

[2]– يمكن مراجعة أطروحة دكتوراه الباحث: نصر الدّين بن داود، الموسومة: (بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 7هـ/13م إلى القرن 10هـ/16م)، في التاريخ الوسيط، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، موسم: 2010/2009م.

[3]– علي الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، بدون ذكر رقم الطبعة وسنتها، ص: 212.

[4]– مجد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مراجعة: أنس محمد الشامي وزكرياء جابر أحمد، القاهرة: دار الحديث، ط01– 2008م، ص: 321، 322.

[5]– أحمد عبد الجبار الشعبي، الوقف مفهومه ومقاصده (ضمن أعمال ندوة المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية)، المدينة المنورة: مكتبة الملك عبد العزيز– من 25–27 محرم 1420هـ/2000م، ص: 06.

[6]– نفسه، ص: 15.

[7]– علي عشي، "الأوقاف في المغرب الأوسط (07–10هـ/13–16م) أبعاد وتجليات"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج: 13، ع: 02– ديسمبر 2022م، ص: 949.

[8]– سورة آل عمران، الآية: 91.

[9]– سورة المائدة، الآية: 02.

[10]– سورة البقرة، الآية: 267.

[11]– أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب 45من احتبس فرسا في سبيل الله، دمشق: دار ابن كثير، ط01– 2002م، ص: 705.

[12]– أبو الحسين مسلم، صحيح مسلم، تحقيق: محمد الفاريابي، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط01– 2006م، ص: 770.

[13]– مصطفى أحمد الزرقا، أحكام الأوقاف، عمّان: دار عمار، ط01– 1997م، ص: 11.

[14]– رواه مسلم في باب الوقف، ص: 770.

[15]– مصطفى أحمد الزرقا، المرجع السابق، ص: 10.

[16]– للتعرف أكثر على دور الأوقاف في الحضارة الإسلامية يمكن مراجعة كتاب: عبد الرحمن بن إبراهيم الضحيان، الأوقاف الإسلامية ودورها الحضاري في الماضي والحاضر والمستقبل، المدينة المنورة: دار المآثر للنشر والتوزيع، ط01– 2002م.

[17]– عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني(دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، الجزائر: موفم للنشر والتوزيع، دون رقم الطبعة– 2002م، ج: 01، ص: 145.

[18]– عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ط03– 1990م، ج: 02، ص: 136./ محمد بن جرير الطّبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ط: 02– بدون سنة الطبع، ج: 02، ص: 383.

[19]– ابن هشام، المصدر السابق، ج: 02، ص– ص:136– 138./ الطبري، المصدر السابق، ج: 02، ص: 296– 297.

[20]– ابن عذاري المراكشي، البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س.كولان وليفي بروفنسال، بيروت: دار الثّقافة، ط: 03، 1983م،ج: 01، ص: 20.

[21]– عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج: 01، ص: 45.

[22]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط: 01– 1998م، ج: 01، ص: 246.

[23]– أغلب هذه المساجد قد اندثر باستثناء أربعة منها هي: الجامع الأعظم أو الكبير، جامع سيدي إبراهيم المصمودي، جامع سيدي أبي مدين بقرية العباد، وجامع سيدي الحلوي. يُنظر: محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 03، 2011م، ج: 01، ص: 169.

[24]– محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق: محمود آغا بوعياد، الجزائر: موفم للنشر، ط: 01– 2011م، ص: 125.

[25]– عبيد بوداود، "قراءة في أوقاف مدارس وزوايا تلمسان الزيانية"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع: 03، ديسمبر 2008م، ص: 42.

[26]– عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج: 01، ص: 147.

[27]– محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق: ماريا خيسوسبيغيرا، تقديم: محمود بوعياد، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط: 01– 1981م، ص: 403.

[28]– علي عشي، المرجعالسابق، ص: 955.

[29]– عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج: 01، ص: 148.

[30]– نجاة بلعباس، "بجاية وتلمسان وأثرهما الثقافي والحضاري على المغرب الإسلامي (ق 5–7هـ)"، أطروحة دكتوراه في أدب المغرب الإسلامي والحضارة المتوسطية– كلية الآداب واللغات جامعة تلمسان– الموسم الجامعي: 2018/2017م، ص: 113.

[31]– عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة (الجزء الأول من كتاب العبر)، تحقيق: خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، ط: 01– 2001م، ص: 740.

[32]– عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج: 01، ص: 346.

[33]– نفسه، ج: 01، ص: 141.

[34]– نفسه، ج: 01، ص: 326.

[35]– بسام كامل عبد الرزاق شقدان، تلمسان في العهد الزياني(633–962هـ/1235–1555م)، رسالة ماجستير في التاريخ، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية نابلس فلسطين، 2002م، ص: 240.

[36]– عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج: 01، ص: 142.

[37]– نفسه، ج: 01، ص: 142، 143/ بسام كامل عبد الرزاق شقدان، المرجع السابق، ص: 240.

[38]– غالم فاطمة، "الكتابات الوقفية وأهميتها– وقفية مدرسة العباد بتلمسان انموذجا"، مجلّة عصور الجديدة، مج: 09، ع: 03– نوفمبر 2019م، ص: 125 وما بعدها.

[39]– عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج: 01، ص: 144.

[40]– التنسي، المصدر السابق، ص: 179، 180.

[41]– عبيد بوداود، المرجع السابق، ص: 45.

[42]– هادي جلول، "دور المكتبات في نشر العلوم في تلمسان"، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات المتوسطية، ع: 02– 2015م، ص: 161.

[43]– زينب لخضر، مليكة حميدي، "وقف الكتب والمكتبات وأثره في الحياة العلمية بالدولة الزيانية خلال القرنين (7–10هـ/13–16م)"، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، مج: 10، ع: 03– 2021/06/16م، ص: 420.

[44]– عيسى كروم، عبد العزيز فيلالي، "أحباس الكتب المخطوطة في المغرب الأوسط مواصفاتها وأشكال الإنتفاع بها (7–10هـ/13–16م)"، مجلة المعارف للبحوث والدّراسات التاريخية، ع: 07، ص: 98.

[45]– عبيد بوداود، المرجع السابق، ص: 46.

[46]– عيسى كروم، عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 102.

[47]– نفسه، ص: 103.

[48]– نفسه، ص: 104.

[49]– أبو الحسن علي القلصادي، الرحلة، دراسة وتحقيق: محمد أبو الأجفان، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ط: 01، 1978م، ص: 95.